المحاضرة السابعة:

النقد وقضية الإعجاز

1-مفهوم الإعجاز:

المعجزة في اللغة مأخوذة من العجز الذي هو نقيض القدرة، والمعجز في الحقيقة فاعل العجز في غيره وهو الله تعالى، كما أنه هو المقدر لأنه فاعل القدرة في غيره، ومعنى الإعجاز الفَوْتُ والسّبقُ، يُقال: أعجزني فلان أي فاتني. ويُقال: عَجَز يَعجزُ عن الأمر إذا قصر عنه[1]. وإنّما قيل لأعلام الرسل عليهم السلام معجزات لظهور عجز المرسل إليهم عن معارضتهم بأمثالها. وزيدت الهاء فيها فقيل: معجزة للمبالغة في الخبر عن عجز المرسل إليهم عن المعارضة فيها. ومعجزة النبي صلى الله عليه وسلم، وآيته الكبرى عن صدق نبوته هي: " القرآن الكريم".

وكان السائد في الديانات السابقة أن تكون الآيات، و المعجزات الدالة على صدق الأنبياء حسيّة، لأنها كانت لا تخاطب العقول، و إنما كانت تعتمد على خوارق العادات من المعجزات المادية الملموسة، فالنار تتحول إلى برد و سلام، و العصا تنقلب حية، و الجبل يرتفع فوق الرؤوس ثم يعود إلى مكانه، و البحر ينفلق إلى شقين، و الصخرة تنشق فتخرج منها ناقة ثمود، وهكذا كانت تتوالى المعجزات الحسية المادية لتأييد الرسالات بدلا من أن تتوالى الأدلة العقلية، و البراهين المنطقية، إلى أن يبلغ العقل البشري النضج، و التمام فتهبط عليه رسالة الإسلام. فالقرآن معجزة عقلية بيانية تخاطب القلوب والعقول معا.

وقد شرّف الله تعالى اللغة العربية بأن عدّها لغة الخطاب بينه وبين خلقه. ولا يمكن الوصول لمواطن إعجاز القرآن إلاّ بفهم بلاغة، وأسرار بيان العربية[2].

قال تعالى يتحدى العرب الذين نزل عليهم و لم ينزل على قوم من أقوام الأرض غيرهم أول ما نزل تحدّيا يكشف عن عجزهم في الإتيان بمثله، وذلك هو الإعجاز المبين: ﴿ **قلْ لَئِن اجتمعت الإنسُ و الجِنُّ على أن يَأتوا بمثلِ هذا القرآن لا يأتون بِمثلهِ ولوْ كانَ بعضهم لبعضٍ ظهيرًا** ﴾ الآية 88 من سورة الإسراء

فالإعجاز بدأ منذ العهد الذي أنزل فيه القرآن، واستمر ذلك حتى يومنا هذا، وسيستمر إلى أبعده.

والقرآن الكريم قد تحققت له أسباب الإعجاز، التي صار بها معجزا، وتلك الأسباب هي:

أولا: نزوله بلسان عربي مبين: فلو كان القرآن نزل بلسان غير عربي، لاحتجّوا بأنهم لا يعرفون اللسان الذي جاء به، ولم يكن للتحدّي معنى، لأنّ شرط التحدّي أن تقطع جميع الأعذار

---

[1]) ينظر: ابن منظور: لسان العرب، المجلد الثاني، ص 1100.

[2]) ينظر: فتوح محمود: الإعجاز القرآني من المنظور البلاغي عند الباقلاني وأثره في منهج الدراسات الاستشراقية الحديثة، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، العدد12، جوان 2014، ص 24 وما بعدها.

التي يمكن أن يتعلّق بها من تتحدّاه. لذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون القرآن الكريم بلسانهم ونظمهم، لتقوم عليهم الحجة.

ثانيا: ازدهار اللغة العربية وقت نزول القرآن الكريم: فقد نجمت في شبه الجزيرة العربية أحداث موزعة بين السياسة، والاجتماع أخصبت الأخيلة عند العرب، وأمدت الأذهان، ونمت العقول، ففي العصر السابق للدعوة الإسلامية توفرت للغة العربية عوامل أسرعت بها نحو النضج والكمال، وذلك بفضل الأسواق التي كانوا يقيمونها على مدار أشهر السنة، يتناشدون الأشعار، ويتبارون في عرضها.

ويرى علماء المقارنة بين اللغات أن اللغة العربية، بدأت تاريخها المعروف -بخصائصها المميزة لها اليوم -في عصر سابق للدعوة الإسلامية، ويردونه إلى القرن الرابع قبل الهجرة.

ثالثا: بلاغة العرب، وقدرتهم على التمييز بين كلامين: كلام بليغ من صنع البشر، وكلام معجز هو من عند الله.

رابعا: تحدي القرآن الكريم للعرب، وإثارة حميتهم لأجل أن يأتوا بمعارضه فلم يأتوا:

1-فقد عجزوا أن يأتوا بمثله، وإن استعانوا في ذلك بالإنس و الجن جميعا يقول الله تعالى:﴿ **قلْ لَئِنِ اجتمعتِ الإنسُ و الجِنُّ على أن يَأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بِمثلهِ ولوْ كانَ بعضهم لبعضٍ ظهيرًا**﴾الآية 88 من سورة الإسراء.

3 –وعجزوا أن يأتوا بعشر سور مثله. يقول الله تعالى:﴿ **أمْ يقولُونَ افتَراهُ قلْ فَأْتُوا بعشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ، وادْعُوا مَنِ استَطَعْتُمْ من دون الله إنْ كنتمْ صادقينَ** ﴾سورة هود الآية: 13

2 –وعجزوا أن يأتوا بمثل سورة منه، قال تعالى:﴿ **أم يقولونَ افتراهُ، قُلْ فَأْتوا بسورةٍ مثلهِ، وادْعُوا منِ استَطَعتُم من دُونِ اللهِ إنْ كنتمْ صَادِقينَ** ﴾سورة يونس الآية: 38.

4-ولما بلغ بهم العجز نهايته، عاد فنزل معهم فوق ما نزل في سابقه، فتحدّاهم أن يأتوا بحديث مثله أي حديث كان، لا على أن يكون القرآن، ولا سورة من القرآن، ولا عشر سور مفتريات على نحو نظم القرآن فقال تعالى:﴿ **فَلْيَأْتُوا بِحديثٍ مثلِهِ إنْ كانوا صَادِقِينَ**﴾ سورة الطور الآية: 34. فعجزوا كذلك.

فثبت إعجاز القرآن الكريم، ودلّ على صدق محمد صلى الله عليه وسلّم، وأنّه مرسل من قوة فوق قوى البشر.

واهتم علماء الإسلام بالبحث في موطن ومكمن إعجاز القرآن الكريم، وانطلق كل منهم يتلمس الإعجاز في جانب من جوانب التميّز والتّفوّق في القرآن، فمنهم من وجد الإعجاز في البلاغة والفصاحة، ومنهم من وجد الإعجاز في الإخبار عن أمور الغيب، ومنهم من وجد الإعجاز في قصص الأوّلين، ومنهم من رآه في النظم والتأليف، و التركيب البياني، ومنهم من قال بالصَّرفَة. فتبلورت آراء العلماء في مذاهب أبرزها: الصرفة، مذهب البلاغة، مذهب النظم.

2-مذاهب العلماء في تفسير الإعجاز:

2-1-مذهب الصَّرفَةُ:

الصَّرفَةُ في اللغة مصدرٌ للفعل "صَرَفَ" بمعنى أبعدَ، وصرف الشيءَ عن وجهه إلى جهة أخرى، ومنه تصريف الرياح، وهو صرفها من جهة إلى جهة، وتدور معانيها عند أهل الصَّرفة على ردِّ العزيمة والهَمِّ.

ويرى أصحاب هذا الرأي أنّ الله تعالى صرف العرب عن معارضة القرآن. وأوّل من قال بالصَّرفة **إبراهيم بن سيار النظام** وقد اختُلِفَ في تاريخ وفاته ما بين عام 221 ه وعام 229 ه. وكان من كبار المتكلّمين وشيخ المعتزلة. ورأى بأن العرب لم يعارضوا القرآن الكريم لأن الله صرفهم عن ذلك. وأنّه أذهلهم، وصرف عنهم الدواعي التي تدفعهم إلى الاهتمام بمعارضته، فلم يفعلوا[3].

2-2-مذهب البلاغة:

رأى بعض العلماء أن إعجاز القرآن الكريم مردّه إلى بلاغته، وممّن قال بهذا الرأي: ابن قتيبة (ت 276 ه)، والرماني (384 ه)، وأبو هلال العسكري (395 ه).

بادر **ابن قتيبة** في صدر كتابه " **تأويل مشكل القرآن** " ببيان ما في القرآن الكريم من المعاني البلاغية التي تعتمد على دقة التعبير، وإجادة التصوير بأسلوب يثير الخيال ويحفز على العمل وقد ذكر منها ابن قتيبة " الإيجاز" الذي هو التعبير عن المعاني الكثيرة، بدقة وعمق، بألفاظ قليلة. فقد جُمِعت الكثير من معانيه في القليل من لفظه وذلك معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «أوتيت جوامع الكلم» ثم يقارن بين إيجاز النظم القرآني و الإيجاز في سائر الكلام ويظهر تفوق الأول، كما توقف ابن قتيبة عند نواحي بلاغية أخرى تبرز إعجاز القرآن بالشرح و التمثيل لها[4].

وتوقف **الرماني** في " **النكت في إعجاز القرآن**" عند الإيجاز، والإطناب و بيّن مواطن الإجادة في كل منها، كما ذكر بعض ما جاء في القرآن الكريم من التشبيه، ونبّه إلى ما فيه من البيان، وكذلك الاستعارة وغيرها من صور البلاغة التي تثبت إعجاز القرآن وتبيّن الفرق بين البلاغة القرآنية وغيرها من بلاغة البشر[5].

وعرض **أبو هلال العسكري** في كتابه " **الصناعتين**" مختلف الصور البلاغية التي يتحقق من خلالها بلوغ الغاية من الإبانة والبيان، ومثّل لها بشواهد من القرآن الكريم.

2-3-مذهب النظم:

و رأى أصحاب هذا الرأي أن سبب إعجاز القرآن هو نظمه، وممّن قال بهذا الرأي الجاحظ (ت 255ه)، و الخطابي (ت 388 ه)، و عبد القاهر الجرجاني (ت 471 ه).

---

[3]) حسين نصار: الصرفة والإنباء بالغيب، مكتبة مصر، مصر، دط، دت، ص 8.
[4]) ينظر: عبد الله بن مسلم بن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط2، 1973، ص3وما بعدها.
[5]) ينظر: علي بن عيسى الرماني: النكت في اعجاز القرآن، تحقيق: عبد العليم، مكتبة الجامعة المليّة الإسلامية، دلهي، 1934 هـ، ص 2 وما بعدها.

فبعد أن أثبت **الجاحظ** عجز العرب وهم في أوج بلاغتهم عن معارضة القرآن الكريم، رأى بأن الذي أعجزهم مع أنّه من جنس كلامهم هو نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد[6].

وبيّن **الخطابي** كيف تفنّن القرآن في تنويع المعاني مدرجة في أحسن نظوم التأليف، وما يخلّفه من تأثير في النفوس، ويفسّر تنوع هذا الأثر، وتردّده بين إثارة البهجة وإثارة الخوف، والفزع عن طريق الائتلاف بين الثلاثة: المعنى واللفظ والرباط الناظم.

ورأى الخطابي بأنّه تعذر على البشر الإتيان بمثل القرآن لأن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة وأوضاعها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا جميع النظوم التي بها ائتلافها وارتباطها بعضها ببعض [7].

ولقد قرر **عبد القاهر الجرجاني** في كتابه " **دلائل الإعجاز** " منذ البداية أن القرآن معجز، وحاول أن يستكشف فيه مواطن الإعجاز، ورفض فكرة أن يكون الإعجاز موطنه الألفاظ، لأن الألفاظ المفردة موجودة في الاستعمال قبل نزول القرآن. وليس الإعجاز في ترتيب الحركات والسّكنات لأن ذلك قد ينطبق على حماقات مسيلمة في قوله: " إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر"، ولا يتحقق الإعجاز في الفواصل، لأن الفواصل القرآنية كالقوافي في الشعر، وذلك أمر كان العرب قد أتقنوه ولم يعد معجزا لهم، وليس الإعجاز في الاستعارة لأن ذلك سيحصر الإعجاز على آيات دون سواها. فلم يبق إلاّ أن يكون الإعجاز في النظم والتأليف. وهما مترادفان في رأي عبد القاهر، ويحدّد معنى النظم بقوله: " واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها" [8]. وقد بيّن عبد القاهر أنّه ليس للفظة في ذاتها، لا في جرسها، ولا دلالتها، ميزة أو فضل أوّليّ، وليس بين أية لفظة وأخرى في حال انفراد كلّ منهما عن أختها من تفاضل [9].

---

[6]) ينظر: حسين نصار: الصرفة والإنباء بالغيب، ص 12 وما بعدها.

[7]) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني: تحقيق: محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، دت، ص14.

[8]) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد التنجي، دار الكتاب العربي، ط2، 1997، ص 77.

[9]) المصدر نفسه، ص 77وما بعدها.